

عائلة القسطلاني من خلال كتب التراجم والطبقات: محاولة في الإحاطة بصنف من النخب العلمية المهاجرة إلى المشرق ومكانتها في المجتمع.

هشام صمايري: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

لئن تعدّدت الأبحاث التي اهتمت بهجرة النخب العلميّة المغربيّة إلى المشرق، وبدراسة أوضاع الجاليات المستقرة في مختلف المدن والعواصم الموجودة على طريق الحج والتجارة¹ فإن معرفتنا بالعائلات العلمية المغربية المهاجرة ظل يكتنفها الصمت والغموض باستثناء ما ورد في ثنايا أخبارهم من إشارات شحيحة أوردتها هذه الدراسات بكيفية عفوية وغير كافية.

لعل أول العوامل المفسّرة لهذا الصمت هو الفقر الوثائقي في الكتابة التاريخية الوسيطة وصعوبة تتبع هذه العائلات من خلال المصادر، فاذا كانت مهمة الباحث في تاريخ الأوروبي ميسّرة إلى حد ما بفعل الوفرة النسبيّة للوثائق التي تحتويها الخزانات

¹ أنظر مثلاً: ذنون طه (عبد الواحد)، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، المدار الإسلامي، الط 1، طرابلس 2005. أحمد (علي)، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 1 دمشق 1985.

Pouzet (Louis), « Maghrébins à Damas au VII/XIIIe siècle » *Bulletin des études Orientales*, TXXXVIII, année 1975, pp 167 – 193 Garcin (J. C.), *Un centre musulman de la Haute-Egypte Médiévale*, QUS, Thèse pour le Doctorat d'Etat ès-Lettres et science humaine présentée à l'Université de Paris I (Panthéon – Sorbonne), Paris 1974.

والمؤسسات الثقافية والدينية¹، فإن مهمّة نظيره في التاريخ الإسلامي تبدو عسيرة ومخوفة بالصعوبات والعراقيل، فلم يصل إلينا حول هذه العائلات إلا ما احتفظت به المصنّفات التاريخية والأدبية على وجه الخصوص من معلومات تتطلب جهدا كبيرا لإعادة تركيبها وترتيبها، إلى جانب وجود العديد من النقائص المتعلقة بهذا النوع من المصادر، والتي من شأنها أن تعطل الحصول على نتائج واضحة ومسلم بها.

ونحن نسعى من خلال هذه المحاولة إلى نفّض الغبار على إحدى أهم عائلات إفريقية المهاجرة إلى المشرق في العصر الوسيط، مع محاولة توظيف المعلومات المتوفرة حولها في المصادر لإثارة عدة نقاط متعلقة بالهجرة وظروف الاندماج في المجتمعات المشرقية، كما سوف نختم في السياق نفسه بتفسير وتحليل الكيفية التي استطاعت بها هذه العائلة المحافظة على مكانتها وتوريث مكتسباتها الرمزية والمعنوية عبر أجيال متتالية. فما هي إذن آليات تكون هذه النخبة الاجتماعية النافذة والفاعلة، وكيف كانت سيرورة تدرجها نحو الامتياز والمكانة؟ ثما هو مصدر مكتسباتها الرمزية والاعتبارية؟ هل هو موروث أم مكتسب؟ هل كانت هذه الأسرة المهاجرة مدعوة إلى المواكبة والتجديد لتدافع عن مصالحها ونفوذها واستمراريتها؟

¹ Chamoux(A.), «La reconstitution des familles: espoirs et réalité», *Annales Economies, Sociétés, Civilisation*, 27^e année, n° 4-5, 1972, pp. 1083 – 1090. Schofield (R. S.) et Chamoux(A.), «La reconstitution de la famille par ordinateur», *Annales. Economies, Sociétés, Civilisations*, 27^e année, N° 4 – 5, 1972, pp 1071 – 1082. Blayo(Ch.), « de l'application des principes d'analyse démographique à l'étude de l'évolution des familles », *Population*, 45^e année, n° 1, 1990, pp. 63 – 86.

لا يتأتى الجواب على هذه التساؤلات إلا من خلال تتبع آثار هذه العائلة في كتب التراجم والطبقات والإمام بكل تفاصيل هجرتها وتفرعها ومناطق استقرارها وعلاقاتها مع الفئات المكونة للمجتمعات المشرقية.

1 الظرفية التاريخية لهجرة آل القسطلاني إلى المشرق:

استطاعت عائلة القسطلاني المحافظة على مكانة اجتماعية متميزة في ظل مختلف الأنظمة التي تعاقبت على مصر منذ بداية القرن السادس هـ / 12 م إلى حدود القرن الحادي عشر الهجري / 17 م. وبنو القسطلاني الذين نعرفهم في مختلف هذه العصور هم أبناء وأحفاد الحسن بن عبد الله بن أحمد الميموني، أصيل قسطلية من بلاد الجريد¹، وكانت قد برزت في الميادين العلمية والاجتماعية مع شخصيتين اثنتين عرفت الأولى باسم: أبي العباس أحمد بن علي بن محمد (559 - 636 هـ / 1163 - 1238 م) الذي اشتهر في علوم الفقه والزهد والحديث فدرّس سنينا طويلة بالمدرسة المالكية بمصر، ثم أصبحت الرحلة إليه خاصة في الفترات الأخيرة من حياته لما تميّز به من تضلع في رواية الحديث وعلو الإسناد².

¹ استعملت المصادر الوسيطة منذ القرن 2 هـ / 8 م تسمية قسطلية التي أطلقت تارة على مدينة توزر وتارة أخرى على كامل بلاد الجريد. وقد ذكر البكري في تعريف قسطلية ما يلي: " فأما بلاد قسطلية فإن من مدنها توزر والحمة ونفطه، وتوزر هي أمها وهي مدينة كبيرة... البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، ط 2 بيروت 1992، ج 2، ص 708؛ وأضاف المراكشي. "وهو قطر كبير فيه مدن كثيرة قاعدتها توزر كلاها الله... المراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، ط 1 بغداد 1986، ص 155. أما ياقوت الحموي فيقول أنها: " في بلاد الجريد من أرض الزاب الكبيرة وهي مدينة كبيرة عليها سور حصين وبها تمر قسب كثير يجلب إلى إفريقية لكن ماءها غير طيب وسعرها غال وأهلها شرارة وهيبة وإباضية... " ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، ط 1 بيروت 1977، ج 4، ص 348.

² السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية، ط 2 بيروت 1993، ج 1، ص 122؛ أنظر أيضا ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين

والثانية: شخصية وقع ذكرها في ترجمة أبي العباس أحمد، وهو خاله الحسن بن أبي بكر عتيق بن الحسن القسطلاني المعروف بالقاضي المرتضى (527 - 598 هـ/1138 - 1201 م)، والذي يذكره مترجموه بأنه من فضلاء مصر، لكن دون معلومات إضافية حول حياته واختصاصاته العلمية¹. ويفهم من خلال ما ورد حول هاتين الشخصيتين أن هذه العائلة كانت قد هاجرت من إفريقية إلى مصر قبل ظهورهما بكثير، أي تخميناً خلال الفترة الممتدة بين أواسط القرن الخامس إلى بداية القرن السادس الهجري/ 12 م.

لكن للأسف لا تدلنا النصوص المتوفرة لدينا عن أي معلومة حول ظروف هذه الهجرة وتاريخها، كما أننا لم نعث على ترجمة لأي فرد من أفراد هذه العائلة خلال المرحلة الإفريقية، سوى ما ذكر حول هجرة أحد أقارب أبي العباس أحمد خلال بداية القرن السابع الهجري/ 13 موهو الفقيه ضياء الدين محمد بن عمر بن محمد القسطلاني (598 - 663 هـ/1201 - 1264 م)².

وأمام غياب نصوص واضحة وصريحة حول الدوافع أو الأسباب الكامنة وراء تخيير هؤلاء الأعلام مغادرة إفريقية بشكل نهائي، نرى أنه من الأجدر الوقوف على

الجنان، دار الكتب العلمية، ط 2 بيروت 1996 ص 239؛ التنبكي، نيل الديباج بتطريز الديباج، اشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط 1 طرابلس 1989، ج 1، ص 78.

¹ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط 2، بيروت 1993. ج 42، ص 345؛ أنظر أيضاً المنذري، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط 1 بيروت 1984، ج 1، ص 424.

² الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركبي مصطفى، دار إحياء التراث، ط 2 بيروت 2000، ج 4، ص 184؛ البونيني، ذيل مرآة الزمان، بعناية وزارة التحقيقات الحكومية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، ط 2 القاهرة 1992، ج 2، ص 329.

التحوّلات التي شهدتها المنطقة خلال القرن الخامس/ 11 م، للخروج بتصوّر سليم يكشف النقاب عن خبايا هذه الهجرة وخلفياتها. خاصة وأن العوامل التي تفسّر حالات التنقل لدى النخب العلميّة، تتعدد وتختلف من فترة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر، فيمكن أن تكون رغبة طوعيّة في الاستقرار على إثر الرحلات الحجّية والعلميّة التي كان يقوم بها المغاربة إلى المشرق لكن لا يخفى علينا أيضا أن ما كان يدفع العلماء أكثر إلى المغادرة النهائية لأوطانهم هي الأحداث والاضطرابات الكبرى المتعلقة بالأوضاع السياسيّة والدينيّة كالفتن والحروب وانعدام الأمن¹، إلى جانب حالات النّفي والإبعاد التي يمكن أن يتعرض لها هذا الشخص أو ذاك أثناء قيامه بوظائفه. لذلك يَحْتَمِلُ إلينا أن تحليل المعطيات التاريخيّة الموجودة والمتوفرة حول الفترة المدروسة كفيل بدفع الفرضية إلى الأمام والإجابة على بعض التساؤلات المتعلقة بهجرة أسلاف بيت القسطلاني إلى المشرق. فقد شهدت إفريقية خلال القرن الخامس الهجري/ 11 م وضعاً أمنياً متريداً وأزمة شملت شتى مظاهر الحياة، من علاقات مذهبية وسياسيّة ومعاملات اقتصاديّة، كما تضافرت عوامل داخلية وأخرى خارجيّة في مزيد تعميق الأزمة وإحداث تحوّلات كبرى على المستوى الديموغرافي والبشري، ويمكن تلخيص هذه الظروف في النقاط التالية:

- أفضت مواجهات العسكريّة المتكرّرة بين الزيريين والقبائل الزناتية، إلى إلحاق أضرار كبيرة بواحات الجريد وانعكست سلباً على إيرادات التجارة الصحراوية، فتحدثت المصادر بإطناب عن الحملات العسكريّة الرسميّة وردود الفعل والغارات التي كانت

¹ بن حمادي (عمر)، "كتب الطبقات ومشاكل استغلالها في أبحاث الديمغرافية التاريخية"، ندوة الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي، دار سراس للنشر، تونس 1993. ص 22.

تقوم بها القبائل الزناتية على واحات الجريد ونفزاوة وما خلفتهم آثارا تقل ضراوة على سياسة الأرض المحروقة¹.

- زادت هذه الصراعات في استفحال المجاعات وانتشار البؤس والفقر في بعض سكان واحات الجنوب الشرقي الذين أصبحوا يتقلبون من مكان إلى آخر بحثا عن مورد للعيش².

- في حين أخذت ظواهر ودلالات الانقسام المجتمعي تظهر في شكل مجموعات سياسية ودينية مستقلة على هامش الدولة الزيرية مثلما هو الأمر في طرابلس والجريد³.

- وابتداء من تلك الحقبة أصبحت إفريقية تتعرض للضغط المتزايد جزاء تقدم القبائل الهلالية نحو وسط البلاد، حتى كانت هزيمة حيدران سنة 447 هـ / 1056 م سببا

¹ يقول ابن الأثير : "وفي هذه السنة (سنة 415هـ) خرج بإفريقية جمع كثير من زناتة فقطعوا الطريق وأفسدوا بقسطنطينية ونفزاوة فأغاروا وغنموا واشتدت شوكتهم وكثر جمعهم" ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى بيروت 1997. ج 7، ص 682. أنظر أيضا حول الصراعات بين الزيريين والزناتيين من 414 إلى سنة 430 هـ. روجي إدريس (المهادي)، الدولة الصنهاجية : تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 م إلى القرن 12 م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى سنة 1992. ج 1، صفحات 197 - 206.

² أنظر حول مجاعات سنة 413 و 425 هـ و 447 هـ و 469 هـ، وسنة 483 هـ، ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 671 و 765. ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان ول. برونسال، دار الثقافة، الطبعة الثالثة، بيروت 1983. ج 1، ص 275 و 294 - 302. أنظر أيضا حسن (محمد)، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 1999. ج 1، ص 31.

³ استولى بنو خزرون على الحكم في طرابلس، وتحولت قسطنطينية إلى حكم البيوتات المنتفذة مثل : بنو وطاس بنو فرقان وبنو يملول.

مباشرا في سقوط الدولة الزيرية وتدحرج البلاد نحو وضع عمراني واقتصادي واجتماعي أكثر تعقيدا من الفترات السابقة.

ولا شك أن هذه الظروف الأمنية قد ساهمت بشكل كبير في تغيير المكوّنات البشريّة داخل المدن والبوادي، ودفعت بالعديد من السكان إلى الهجرة نحو مناطق متفرّقة. فتحدث محمد حسن على وجود تحرّك سكاني هام كان يتم في خط أفقي يمتد من جهة طرابلس إلى جهة وارجلان وأن البعض من أهالي الواحات قد لاذ بالفرار نحو الجزر المتوسطية¹. في حين شهدت القيروان على إثر اختيار السلطنة الزيرية وخراب المدينة بداية من سنة 447 هـ / 1055 م، هجرة مكثفة للأهالي والعديد من النخب العلمية نحو الساحل والمدن المغربية، حيث عكست روايات المعاصرين من أمثال الحصري وابن رشيق وابن شرف بكل وضوح التأثير الكبير للعلماء بهذا الحدث وما ولدته بينهم من هجرة وانجلاء².

فهل تعلقت هجرة بيت القسطلاني بهذه الظروف التي تواصلت حتى موفى القرن السادس الهجري؟

رغم أننا لا نستبعد ذلك بالمرّة فإن المصادر التي استقصت أسماء المهاجرين من بلاد الجريد بكل دقّة خلال الفترة المشار إليها لا تحمل اسم أي فقيه، قد غادر افريقية لظروف أمنية متعلقة بالضغط الهلالي مثلما هو الأمر بالنسبة إلى القيروانيين. فالتراجم التي

¹ تحدّث محمد حسن عن الأزمة التي عاشتها بلاد الجريد في بداية القرن الخامس الهجري، وهذه الأزمة التي تعلقت بكثرة المجاعات والحروب وانتشار قطاع الطرق في الواحات وعلى المسالك التجارية، مما أدى إلى انجلاء عدد هام من السكان نحو الصحراء أو في اتجاه الجزر المتوسطية. حتى أن الفترة الممتدة بين الهجرة الهلالية سنة 429 هـ وبداية تقدم الموحدين في اتجاه الشرق سنة 546 قد زادت من استفحال الأزمة بإفريقية خاصة على سكان الجنوب وأدت إلى تحولات كبيرة في المجال البشري والديمقراطي. أنظر حسن (محمد)، المدينة والبداية ج 1، ص 31 - 33.

² أنظر خاصة: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص 566.

تحصلنا عليها تكتفي في أغلب الحالات بتدوين بعض الرحلات الحجية المتعلقة بالشخصيات المشهورة والتميزة في الميادين العلمية. فقد سافرمثلا عبد الله بن يحيى بن علي بن زكريا الشقراسي (توفي سنة 466 هـ / 1073 م) إلى المشرق حاجا ولقي أثناء رحلته أعلاما وروي عنهم، وعند رجوعه إلى بلده اشتغل بالتدريس وانتفع به مجموعة من الطلبة منهم أبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي (توفي سنة 513 هـ / 1119 م). كما أن المصادر لا تقل وضوحا فيما يتعلق بالمكانة التي احتلها عبد الملك بن الكردبوس التوزري (حيا سنة 575 هـ - 1179 م)، بعد عودته من رحلته بإجازات علمية مُنحت له من قبل علماء مصر ومكة ومن كان بها من المشاهير¹.

لذلك بإمكاننا الاعتقاد أن بلاد الجريد قد حافظت على الأقلحتى اختفاء هذه الوجوه البارزة على نشاط علمي هام، مكنها من احتلال مكانة متميزة على الساحة العلمية بإفريقية. حتأن الصراعات المتأججة من حين لآخر لم تحل دون تواصل النشاط الثقافي والتوسع الحضري، والدليل أن المدينة قد شهدت بناء المسجد الجامع الجديد وهو ما يتناسب مع الامتداد العمراني والنمو الديمغرافي الذي تشهده توزر في تلك الفترة بالذات².

¹ عبد الوهاب (حسن حسني)، كتاب العمر في مصنفات المؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي والبشير البكوش، الدار العربية للكتاب، تونس 2001. ج 1، ص 105.

² يذكر ابن الشباط عند شرحه للقصيد الشقراسية نقلا عن أبي عمرو عثمان التوزري ما يلي : " وذكر الفقيه أبو عمرو عثمان بن حجاج في تاريخه أن ابتداء بناء صومعة جامع توزر كان سنة 418 هـ ". أنظر ما ورد في هذا الشأن لدى حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، ج 4، ص 102.

: بن ميلاد (لطف)، إفريقية والمشرق المتوسطي من أواسط القرن 5 إلى مطلع القرن 10 هـ / 11 - 16 م، تونس 2011. ص 75 - 76 وما بعدها.

لذلك من غير الممكن حسب اعتقاد يحصر هجرة آل القسطلاني في الجانب الأميني، فنحن نرى أن الأمور يمكن أن تفسّر أحسن لو وضعنا هذه الهجرة ضمن تصوّر أوسع وأشمل. أي أن نركز على ما كان يتميز به الجو الثقافي بالشرق والمغرب خلال القرن الخامس الهجري/ 11 م.

فمن الثابت أن هذا القرن، قد شهد إلى جانب الظروف الأمنية التي أشرنا إليها سابقا صراعا بين المذهبين السني بفرعيه الأشعري والمالكي من جهة والشيعة من جهة أخرى. ولعبت القوى الهامشية "الطرفدارية" على حد تعبير ابراهيم القادري بوتشيش، أدوارا حاسمة في هذا الصراع، بينما قام المرابطون بنصرة المذهب المالكي في المغرب ومحاصرة التيار الشيعي المتربص به، فقد جند السلاجقة أيضا جميع القوى الدينية من مذاهب فقهية ومذاهب عقائدية وزهاد وعباد وغيرهم لنصرة المذاهب السنية، إلى جانب التعويل على إنشاء المدارس النظامية والخانوقات ودور الحديث التي تم تأسيسها في أهم المدن حسب توزّع جغرافي محكم حتى تؤدي غاياتها وتحقق الأهداف المرجوة منها¹.

هذه السياسة التي توخّتها السلط السياسية المتعاقبة في استقطاب جميع المذاهب الفقهية بما فيهم المالكية وإدماجهم في علمية الإحياء السني، قد أغرت على ما يبدو العديد من المغاربة والأندلسيين بالهجرة إلى المشرق، حيث بيّنا في دراسة سابقة أن هذا التحرك أصبح هاما منذ نهاية القرن الخامس ومطلع السادس الهجري/ 11 و 12 م، مما أدى إلى

¹ القادري بوتشيش (إبراهيم)، تاريخ الغرب لإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، ط 1 بيروت 1994. ص 58 - 59. وقد بين عمر بن حمادي، أن ليس هناك ما يمنع من وضع التحرك المالكي للمرابطين في إطار التحرك السني الشامل الذي تبناه أيضا السلاجقة (447 - 522 هـ / 1055 - 1128 م) في المشرق خدمة لسياستهم ضد التيارات الغير سنية وخاصة منها الشيعة وعلى رأسهم الفاطميين في مصر. بن حمادي (عمر)، الفقهاء في العصر المرابطي، ج 2، ص 517.

اثراء المشهد الثقافي وساهم بشكل كبير في تكون مدرسة مالكية مغربية نشيطة في كافة العواصم والمدن الكبرى بالمشرق الإسلامي¹.

ونحن نعتقد أن إسناد هذا الدور إلى الفقهاء الأفارقة لا يبدو غريبا بالمرة خاصة بعد الأحداث التي شهدتها مدرسة القيروان الفقهية واضطلاعها بدور ريادي في مقاومة التشيع في إفريقية في مرحلة أولى، ثم في انتصار المالكية في الغرب الإسلامي في مرحلة ثانية، حيث مكنتنا إحدى الدراسات من أن نتبين حضورا إفريقيا هاما في أعلى الدوائر العلمية وأقربها إلى الفاعلين والمشرفين على حظوظ هذه الحركة السنيّة في الجناح المغربي مع المرابطين².

ولا شك أن هذا الحضور قد أكد فاعليته أيضا في الجناح المشرقي في أوج السيطرة الفاطمية على مصر. حيث استأثرت كتب التراجم وما شابهها من كتب الأدب وغيرها بإعطائنا تفاصيل عن أسماء الأفارقة المستقرين في مصر، وكان للبعض منهم دور هام في الجانب المتعلق بمسار الانتصار الذي حققه التوجه السني عموما، فكتب الطبقات تحدثنا عن الشهرة التي اكتسبها هبة الله المنستيري (504 - 563 هـ) في ميدان الحديث والرواية، فأجمعت على تسميتهم سند الديار المصرية أنه "ملحق الأصاغر بالأكابر في علو

¹ أنظر: صمايري (هشام)، العلماء المغاربة بالمشرق خلال الفترة الموحدية، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2009.

² بن حمادي (عمر)، الفقهاء في العصر المرابطي، ج 2، ص 517.

الإسناد"¹، وتحدثنا أيضا عن عبد السلام بن عتيق السفاسي (توفي سنة 564 هـ) بأنه فقيه الإسكندرية المشهرين في المذهب المالكي وإليه العودة في الفتوى والتدريس.²

ومهما يكن من أمر فقد تضافرت العديد من العوامل التي من شأنها أن تفسّر كثافة هجرة النخب العلميّة خلال القرن الخامس الهجري/ 11 م، حتى وأن لم تساعد المصادر كثيرا في مدّنا بمعلومات حول أسماء المغادرين من إفريقية، فإن الأفارقة الذين انتسبوا للمشرق بالولادة خلال المراحل اللاحقة، هم الدليل الذي يمكن للباحث إثباته حول هذه الحركة، فأحفاد أولئك الذين هاجروا منذ فترة طويلة، امتزجوا في المجتمعات المشرقية وأصبحوا ينتمون إلى مناطق استقرارهم الجديد بالولادة والنسب مثلما هو الأمر لأفراد عائلة القسطلاني وعائلة البوصيري³. مع العلم إن الحركة الهجرية التي شهدتها الفترة المدروسة قد تجاوزت على ما يبدو حدود الفقهاء والمحدثين لتشتمل أصناف أخرى من المجتمع لم تذكرهم كتب التراجم والطبقات.

2 تفرّع عائلة القسطلاني ومناطق استقرارها في المشرق:

¹ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 42، ص 376؛ المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج 1، ص 414؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط 1 مصر 1967. ج 1، ص 375.

² الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 39، ص 198.

³ يذكر الصفدي أن مسعود جد هبة الله المنستيري البوصيري كان قد قدم من المنستير إلى بوسير فأقام بها إلى أن عرف فضله في دولة الفاطميين فطلب إلى مصر وكتب في ديوان الإنشاء. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 27، ص 179. أنظر أيضا: إنشاهنشاه، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الط 1، مصر د. ت. ج 3، ص 102.

ما استطعنا التوصل إليه من خلال تجميع المعلومات من مصادر مختلفة، هو أن هجرة آل القسطلاني تمت عبر موجتين اثنتين. الموجة الأولى يمكن تأريخها بنهاية القرن الخامس وبداية السادس الهجري، وشملت ربما العديد من الشخصيات التي لها علاقة مباشرة بأبي العباس أحمد، مثلما هو الأمر لخاله الحسن بن عتيق بن الحسن القسطلاني المعروف بالقاضي المرتضى¹. أما الموجة الثانية: فهي المتعلقة بهجرة الفقيه ضياء الدين محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن الحسن بن القسطلاني²، الذي أكدت المصادر مولده بتوزر ثم انتقله في بداية القرن السابع الهجري/ 13 ميل إلى المشرق لأخذ العلم ثم للاستقرار، وأكدت أيضا أنه يجتمع مع أبي العباس أحمد بن علي القسطلاني، في الجد الأعلى حسن بن عبد الله بن أحمد الميموني³.

من خلال هذه المعلومات يمكن لنا أن نتميز بين فرعين رئيسيين لهذه العائلة، وهما يكونان بدورهما أصليين لفروع رئيسية أخرى، لتأخذ العائلة في التزايد بشكل واسع، فالذين ذكرتهم كتب الطبقات تجاوزت أعدادهم المائة شخص، ولا شك أن للعائلة وفروعها أفرادا كثيرين لم ينتسبوا إلى النخب العلمية مما يجعل عدد أفرادها يزيد عما وقع ذكره في المصادر التي بحوزتنا.

بالنسبة إلى الفرع الرئيسي الأول فيضم المنحدرين من نسب أبي العباس أحمد القسطلاني، وقد استمر وجود أفرادها إلى حدود القرن الحادي عشر الهجري/ 17 م،

¹ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 42، ص 345 ؛ أنظر أيضا المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج 1، ص 424.

² الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 184؛ البونيني، ذيل مرآة الزمان، بعناية وزارة التحقيقات الحكومية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 1992، ج 2، ص 329.

³ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 49، ص 156.

حيث تذكر كتب الطبقات أن له ابنان نبغا في ميدان العلوم أكبرهما تاج الدين أبو الحسن علي (ت. سنة 665 هـ / 1266 م)¹، وثانيهما القطب أبو بكر محمد (ت. 686 هـ / 1287 م)²، وعنهما انقسم هذا الفرع بدوره إلى فرعين متباينين.

- بالنسبة إلى التاج أبي الحسن علي المستقر في مصر³، فمكتنتنا المعلومات المتوفرة حوله في كتب التراجم والطبقات من تتبع سلالته حتى القرن العاشر الهجري/ 16 م. حيث سيتوقف ذكر المنتمين إلى هذا الفرع في كتب الطبقات مع العلامة الحافظ الشهاب أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (توفي سنة 923 هـ / 1517 م)، الذي يبدو الأكثر تميّزا في مجال العلوم لهذا الفرع ذي الانتماء القوي للمذهب المالكي.

- أما القطب أبو بكر محمد⁴، الذي خيّر الانتقال إلى مكة سنة 619 هـ / 1222 م، فتمكن من ارساء شرف اجتماعي ومكانة متميزة في ميدان العلوم توارثه أبنائه وأحفاده على مدى أجيال متتالية. ومنذ القرن الثامن الهجري/ 14 م، ستشتهر تسمية أفراد هذا الفرع في كتب التراجم بأبناء الزين القسطلاني، نسبة إلى الزين محمد بن محمد (ت. سنة 729 هـ / 1328 م) حفيد القطب أبي بكر محمد، ليتواصل تواجدها في الميادين العلمية إلى القرن الحادي عشر الهجري/ 17 م، من خلال

¹البونيني، ذيل مرآة الزمان، ج 2، ص 372؛ الذهبي، العبر في خبر من غير، تحقيق أبو المهاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت د. ت، ج 3، ص 313.

²البونيني، ذيل مرآة الزمان، ج 4، ص 330؛ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج 3، ص 362.

³ أنظر شجرة: الفرع الرئيسي الأول من أبناء تاج الدين القسطلاني.

⁴ أنظر شجرة: الفرع الرئيسي الأول من أبناء قطب الدين أبو بكر محمد.

شخصية أبي السعود بن علي المعروف بابن الزين القسطلاني، المتوفى سنة 1033 هـ/ 1623 م¹. ورغم استقرار هذا الفرع في مكّة فقد حافظ لمدة طويلة على علاقات وثيقة بالقاهرة ومصر من خلال التدريس والإقامة.

أما الفرع الرئيسي الثاني الذي يعود نسبته إلى ضياء الدين محمد بن عمر²، فقد وجد في مكّة أرضية مهيّأة للظهور مع القسطلانيين من أبناء القطب محمد، وضمن لهم مكانة في كتب الطبقات إلى القرن التاسع الهجري/ 15 م بأسماء متميزة في الفقه على المذهب المالكي رغم أن أعدادهم بقيت محدودة ولم تتجاوز العشرة أسماء.

¹ محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت د. ت، ج. 1 ص. 122.

² أنظر شجرة: الفرع الرئيسي الثاني من أبناء ضياء الدين محمد بن عمر.

الفرع الرئيسي الأول من أبناء تاج الدين أبو الحسن علي

حسن بن عبد الله بن أحمد الميموني

محمد

علي

(1) أبو العباس أحمد (559 – 636 هـ)

(2) تاج الدين أبو الحسن علي (588 – 665 هـ)

مجد الدين أبو علي حسن (685 هـ) عماد الدين محمد (695 هـ) شرف

الدين عبد المولى (685 هـ) أبو المعالي أحمد (اللق. 7 هـ)

أبو الطاهر محمد (695 هـ) النجم أحمد أبو عبد الله محمد (729 هـ)

أم الخير فاطمة (724 هـ) محمد

جمال الدين محمد (725 هـ) أبو الحسن علي (724 هـ)

الزين أحمد كمال الدين محمد (761 هـ)

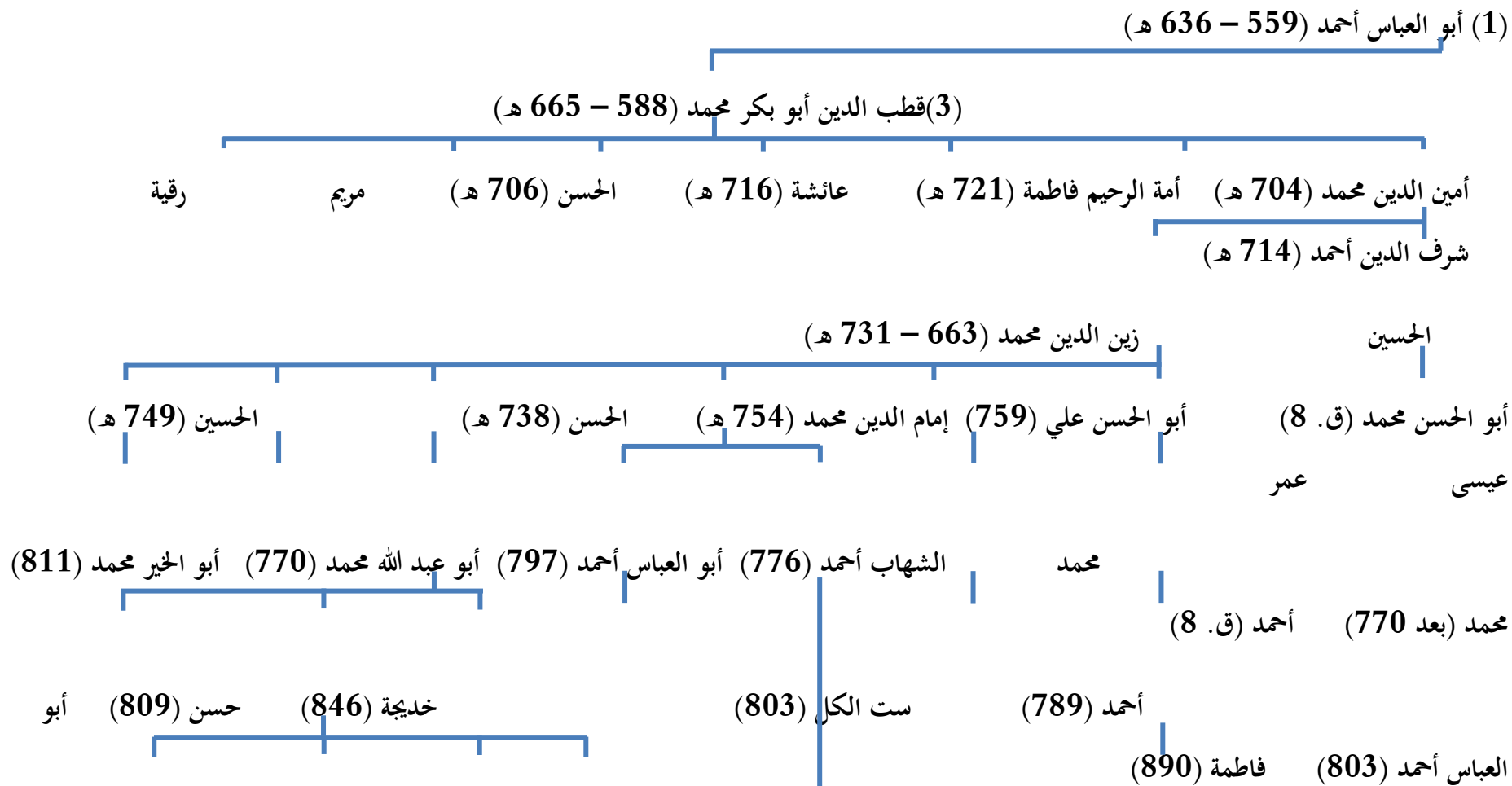
عبد الملك

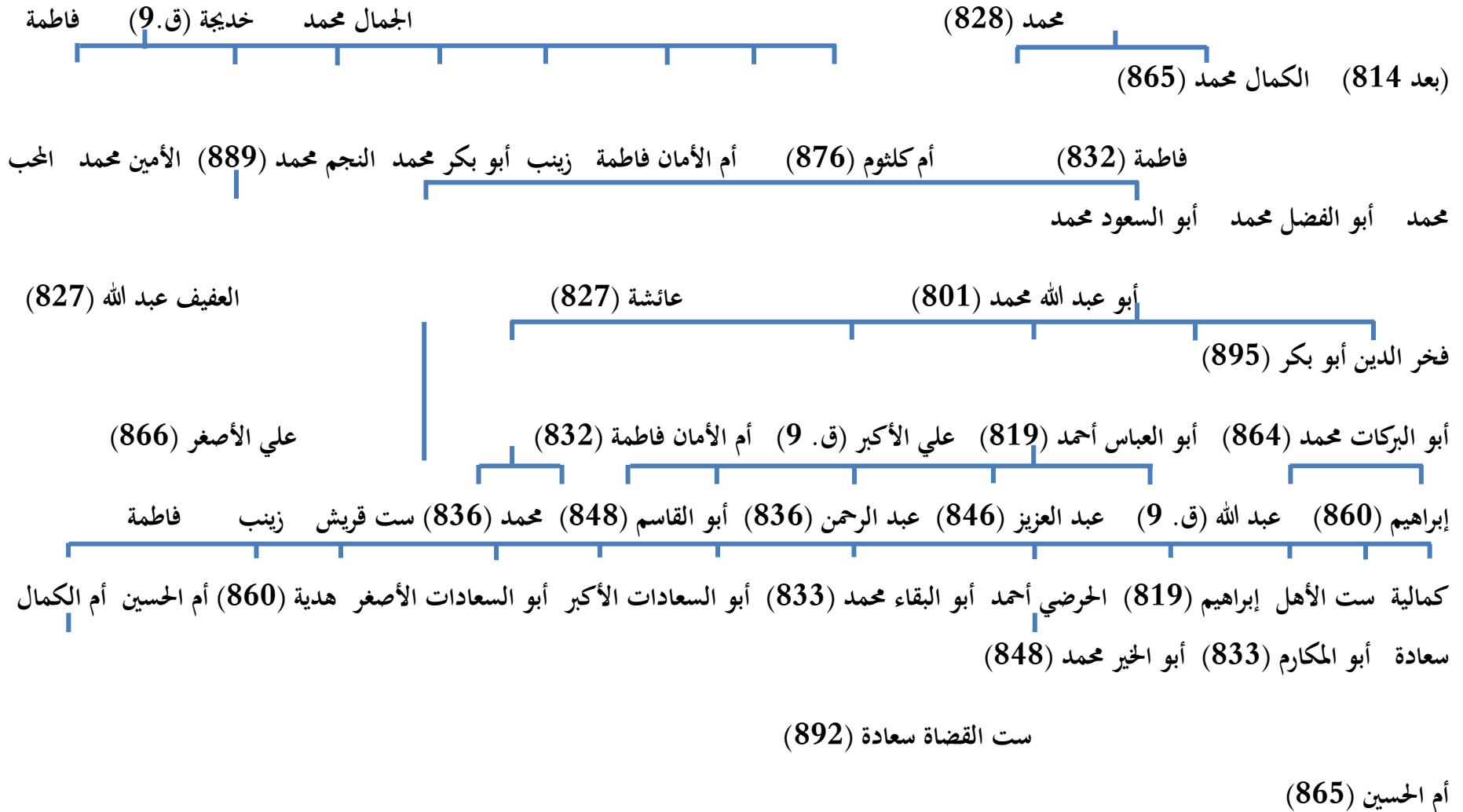
أبو بكر

محمد أحمد (894 هـ)

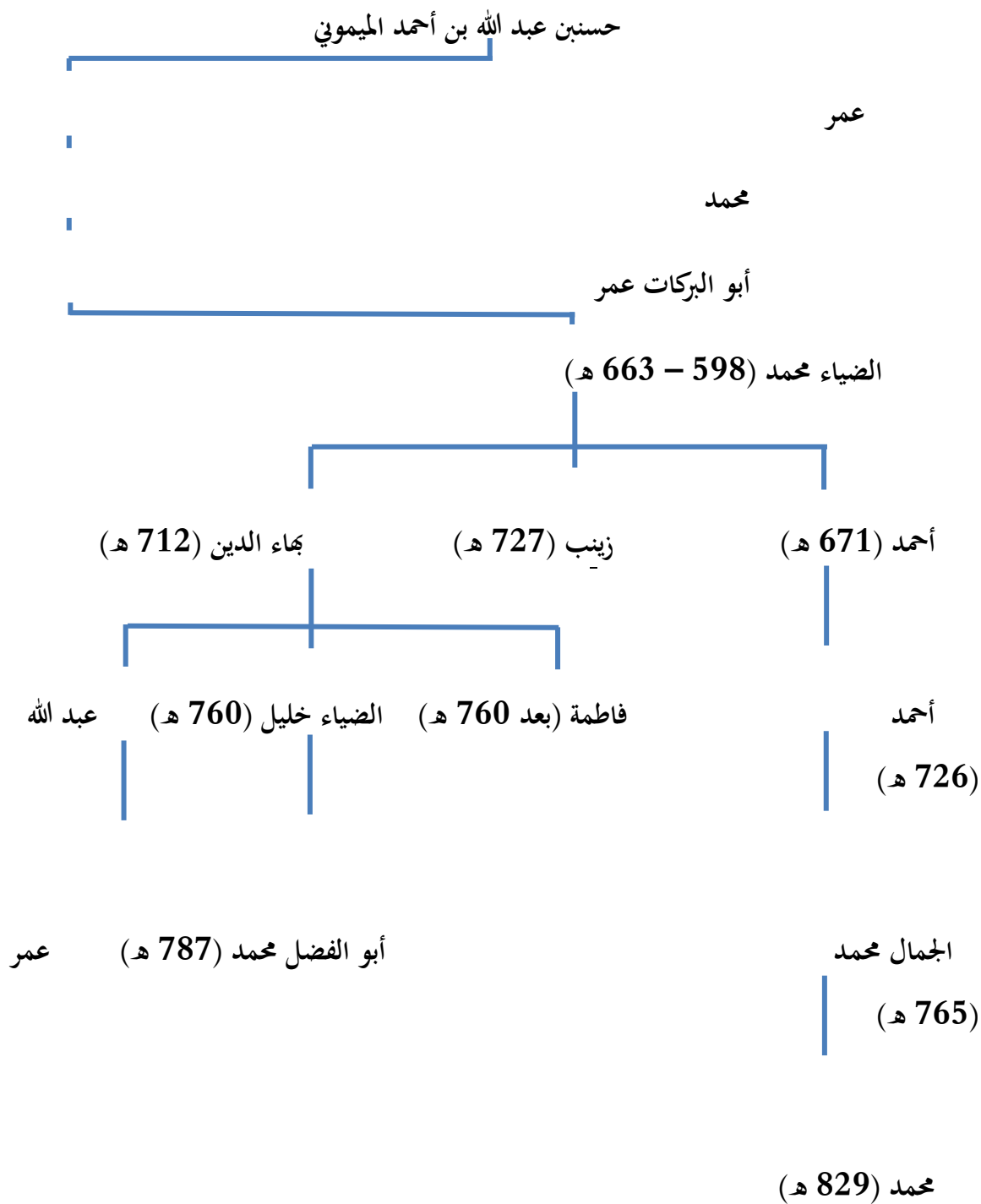
أحمد (923 هـ)

الفرع الرئيسي الأول من أبناء قطب الدين أبو بكر محمد





الفرع الرئيسي الثاني من أبناء ضياء الدين محمد بن عمر



3 المرتكزات الرمزية لمكانة القسطلانيين في المشرق:

نقصد بالمرتكزات الرمزية جملة من المقاييس التي لعبت دورا هاما في التراتبية الاجتماعية الإسلامية، وهذه المقاييس التي يمكن تلخيصها في الجاه والنبيل والشرف والعلم، قد استأثرت بمحافل المجموعات ونحتت من خلالها مكانة وجيهة ضمن فئات المجتمع. فلا مرء أن ابن خلدون قد أفاض الحديث عن تجدد النخب وجماعات الصفوة والمكانة مع تعاقب الأزمان¹، لكن بقيت هذه المعايير الرمزية إلى جانب امتلاك الثروة والمال هي التي تحدد المجموعات المتفوقة طوال الفترة الوسيطة وما بعدها.

وتشترك البيوتات العلمية في امتلاك جملة من المقاييس الاجتماعية التي تؤهلها لتبوؤ المكانة الأولية والمبجلة في السلم الاجتماعي، ومن أبرز هذه المقاييس هو امتلاك الرأسمال الثقافي كما وصفه Pierre Bourdieu واعتبره رأسمال رمزي يحظى بتقدير معنوي من قبل كافة أفراد المجتمع². فمجد العائلة لا يرتكز فقط على الممتلكات المادية لكن أيضا على عراقتها ونبيلها وامتلاكها للمؤهلات والقدرات المعرفية والعلمية. وقد عبّرت كتب الطبقات عن ذلك عند حديثها عن عائلة القسطلاني، فأشاروا إليها بنعوت عديدة، تدلّ على مكانتها العلمية والاجتماعية فهي، "بيت الصّلاح والحديث"، و"بيت علم وفضل"، وهي أيضا "بيت فضل وخطابة". حيث برز منها على مدى أكثر من ثلاث قرون العلماء والقضاة والأدباء، وتولّى العديد منهم مناصب شرعية وإدارية متنوعة.

فماهي إذن المرتكزات الرمزية لمكانة عائلة القسطلاني في المشرق؟ وكيف كانت سيرورة تدرجها نحو الامتياز والمكانة؟

ليس من الصّعب كما أكّده أحدى الأبحاث اندماج المهاجر من النخب العلمية في موضع استقراره الجديد، فأينما يحل يجد الترحاب وقبال الطلبة، بل تسند إلى البعض منهم الوظائف الدينية والسياسية³، ونحن أن كنا نحفظ ببعض الأمثلة التي تؤكد عكس ذلك، فإن هذا التبجيل الذي يتمظهر جليا في الخطاب الموجود في الكتب التراجم والطبقات، قد استند أساسا على المعارف الشرعية والدينية، وهما أحد أبرز محددات المكانة الرمزية للنخب العاملة بصفة عامة، لذلك نحن نعتقد أن أول المقيمين من عائلة القسطلاني في مصر ومكة قد قاموا بتأسيس "رأس ما رمزي" لا بأس به، استند أساسا من معارفهم الدينية والمعرفية.

¹ ابن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت الطبعة الثانية سنة 1988. ص 168 - 169 - 170.

² بورديو (بيار)، الرمز والسلطة، تعريب عبد السلام بنعيد العالي، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، المغرب 2007. ص 67.

³ بن حمادي (عمر)، "كتب الطبقات ومشاكل استغلالها في أبحاث الديمغرافية التاريخية"، ص 24.

وسوف نحاول فيما يلي تحديد أهم التخصصات العلمية التي كانت لها الدور الكبير في رسم هذه المكانة الاجتماعية البارزة للقسطانيين.

تتفق جميع الإشارات الموجودة في المصادر على أن العائلة اختصت برواية الحديث فكانوا من شيوخها واشتهروا بعلو الإسناد (بلغ عدد علماء عائلة القسطاني 103 كان لـ 81 منهم عناية بالحديث والرواية). ونحن نعتقد أن هذا الاعتناء الكبير بعلم الحديث، لا يمكن أن يكون إلا إفرازا لمناخ فكري - ديني تولد في المشرق على إثر سقوط الدولة الفاطمية. فظهور العديد من كبار الرواة خلال هذه الفترة بالذات، يندرج ولا شك في إطار حركة تصحيحية إصلاحية تمثلت فكرتها في الرجوع إلى الأصول الأدلة الشرعية والعمل بالأثر، فضلا على أن هذه الحركة كان يعززها منطق سياسي وإيديولوجية معينة مكنتها من الغلبة والهيمنة.

خلال هذه المناخ الفكري الذي باتيسود العالم الإسلامي، أصبحت عائلة القسطاني منذ ظهورها حتى موافى القرن العاشر الهجري/ 16 م من أكبر عائلات المشرق وأعلاها مكانة في هذا التخصص. ونحن نرى بوضوح من خلال كتب التراجم، أن ما بلغته من أهمية يعود بقسط وافر إلى الجيل الأول من أفرادها، خاصة منه إلى شخصيتين رئيسيتين، هما : تاج الدين أبو الحسن علي الذي أطنبت المصادر في وصف عنايته بالحديث أثناء تدريسه بالمدرسة المالكية المجاورة للجامع العتيق بمصر، ثم عند توليه مشيخة "دار الحديث الكاملية" بالقاهرة¹. وتتمثل الشخصية الثانية في قطب الدين محمد، تلميذ الحافظ أبو الحسن علي بن البناء، وأبو الحسن بن الزبيدي، وغيرهما من كبار شيوخ الحديث ببغداد والموصل والشام ومصر، وكذلك صاحب العديد من المؤلفات مثل "الإفصاح عن المعجم، من الغامض والمبهم في أسانيد رجال الحديث". ولعل الشهرة التي اكتسبها القطب هي التي دفعت بالسلطة الأيوبية لاستدعائه من مكان إقامته بمكة، لتولي دار الحديث الكاملية عقب ابن أخيه عبد المولى بن التاج منذ 636 هـ إلى حين وفاته سنة 665 هـ². ونحن نذكر في هذا الصدد ما ورد على لسان أحد كبار الشخصيات المصرية وهو الحافظ أبو عبد الله محمد بن حسين القرشي، - حسب ما ذكره صاحب لحظ الألفاظ بذييل طبقات الحفاظ- في شأنه : "عني بطلب الحديث أحسن عناية فحصل بالسماع والإجازة على كثير من الرواية... فاجتني غروسها يانعة واجتلي شمسها طالعة وجمع في ذلك مجموعات وأوضح في مجلسه موضوعات... وبي دار الحديث الكاملية فقام بها أحسن قيام ولم يزل معظما عند الخاص والعام متصدياً لإبلاغ السنن"³.

¹ ذيل مرآة الزمان، ج. 2 ص. 372.

² الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد، نبيل أبو عظمة، محمد موعود، الدكتور محمود سالم محمد، قدم له، مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت 1998. ج 5، ص 110، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 51، ص. 225.

³ ابن فهد، لحظ الألفاظ بذييل طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت 1998. ص 55.

ولا شك أن سيطرة أفراد من هذه العائلة على دار الحديث الكمالية بالقاهرة كل تلك السنين الطويلة وما ولّده ذلك بالنسبة إليهم من جاه ونفوذ، كفيل بأن يفسّر لنا المكانة التي حظيت بها داخل المجتمعات المشرقية. فقد واصلت العائلة تقديم العديد من الشخصيات المشهورة حتى فترة متقدمة¹. كما أصبح من تقاليدها توريث هذا العلم إلى النساء جيلا بعد جيل، فاشتهرت فاطمة (ت. سنة 721هـ/ 1321 م) وعائشة (ت. سنة 716هـ/ 1316 م) بنتا القطب محمد بـ"سداسيات الرّازي"، فتواتر ذكرهما في عديد من تراجم علماء القرن الثامن الهجري/ 14 م².

لم يقتصر من ناحية أخرى النشاط العلمي للقسطلانيين على ميدان الحديث بل تجاوز ذلك ليمس ميادين أخرى، أهمها التصوّف والزّهد. ويمكن الاختصار في هذا المجال على ثلاثة أسماء مشهورة بلغت درجة كبيرة من الاستقطاب وجلب المريدين، أولهم: أبو العباس أحمد بن علي، الذي يعتبر من الصوفية المعتدلين والمتمسّكين بأهداب السنّة، مع التمكن بأصول الدّين والفقه على المذهب المالكي. حيث أجمعت المصادر على تسميته بـ"زاهد مصر"، مع التّركيز على وصف سلوكه وانقطاعه والتزامه بتربية المريدين، ويبدو أنه تبني طريقة شيخه أبي عبد الله محمد القرشي وحاول نشرها من خلال مؤلّف جمع فيه كلامه وبعض كراماته وتأثيرها على أفاضل مصر وعلمائها³.

أما الشخصية الثانية، فيمثلها مرة أخرى القطب محمد، فهو إلى جانب تبحره في علم الحديث يعتبر أيضا أحد أكبر أعلام التصوف خلال القرن السابع الهجري/ 13 م، وهو الذي نشأ في بيئة صوفية وترعرع في كنف أبيه، أبو العباس أحمد المتقدم ذكره، وأمه "الولية الصالحة" زوجة الشيخ الصوفي أبو عبد الله القرشي سابقا. ومن المهم أن نشير إلى أن التراجم تجعل من القطب منقطعا على أهل الأهواء متّبعاً للسنّة، ملتزماً بتربية المريدين، وتقدم أمثلة عن أقواله ونصائحه الموجهة أساسا إلى العارفين بالتصوف وتستوجب منهم الكثير من التأويل والتفسير⁴.

كما يبرز أبو حفص عمر السهروردي (ت. سنة 639 هـ) في كتب التراجم، كشيخ للقطب دون منازع، فهو الذي أسمع كتابه "عوارف المعارف" ثم تلقى منه خرقة التصوّف. ويعتبر السهروردي هذا أحد أكبر أعلام الصوفية ببغداد، اشتهر خلال حياته بالمناظرة والرد على الفلاسفة، ومكافحة اعتقاداتهم التي خرجت عن الحدود المعروفة لدى فقهاء أهل السنّة⁵. ونحن نعتقد أن تأثير السهروردي على القطب كان كبيرا، بل نجد أن هناك توافقا كلياً في

¹ انتهت مشيخة الحديث في مكّة إلى قاضي المالكية الأمين محمد بن القطب محمد، وغطّت شهرة شهاب الدّين أبي العبّاس في ميدان الحديث ورواية البخاري الكثير من ميولاته العلمية الأخرى، فتناقلت المصادر ما وصف به من ذكاء وفطنة وإقبال الطلبة عليه حتى أثار ذلك غيرة أغلب علماء عصره. ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 10، ص 169.

² الحسيني الفاسي، ذيل التقييد في رواية السنن والأسانيد، ج 1، ص 260.

³ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 46، ص 280.

⁴ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج 4، ص 330؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقضان، ج 4، ص 152.

⁵ أنظر ترجمته لدى ابن الملّقن، طبقات الأولياء، مكتبة الخانجي، القاهرة 1994. ص 262 وما بعدها.

الفكر بين الشخصيتين، ويبرز هذا التوافق في ما كان ينشره القطب في مؤلفاته من أفكار وما ظهر له من مواقف تعتبر تواسلا للنهج الذي سلكه السهروردي في تجربته الصوفية. كما يدل على ذلك كتاب: "ارتقاء الرتبة في اللباس والصحبة"، المؤلف الذي أثنى فيه القطب على الإمام الغزالي، ثم الكتاب الثاني المسمى "الارتباط" الذي شدد فيه انتقاداته لأصحاب التصوف الفلسفي بدءا بالحلاج (ت. سنة 309 هـ / 921 م) وصولا إلى العفيف التلمساني (ت. 690 هـ / 1291 م)، وبيّن فيه حسب رأيه "فساد قاعدتهم وضلال طريقتهم"¹، وتجتمع الروايات لتؤكد أن القطب أصبح يعادي ابن سبعين عداوة كبيرة وينكر عليه بمكة أكثر أحواله².

ونحن إن كنا نجعل في الواقع كل ما يحيط بطبيعة العلاقة التي ربطت بين ابن سبعين والقطب محمد، فإننا لا نشك أن سيرة هذا الأخير استجابت في مفاصلها الكبرى لنموذج المتصوف السني، فقد مرّ بجميع التطورات والمخاطبات التي يمرّ بها الصوفي في مسيرته الفكرية والعملية: بدءا بالخير والخلة والسياسة والكشف مروراً باتخاذ شيخ وصولاً إلى لبس الخرقة. ويعتبر تتلمذ القطب محمد على السهروردي كالعديد من أعلام الصوفية في تلك الفترة، امتداداً للتصوف السني المعتدل الذي يعكس الطابع العام للحياة الفكرية للقرن السابع الهجري / 13 م³. ويبدو أن الشخصية الثالثة المتأخرة من عائلة القسطلاني لم تحد عن هذا الخط الذي يدعو إلى ربط التربية الروحية والمجاهدة النفسية بالشرع. فقد ولي شهاب الدين أحمد المتوفى سنة 923 هـ / 1517 م. مشيخة مقام الشيخ أحمد الحرّار بالقرافة الصغرى، وألف كتاباً في مناقبه سَمَّاهُ «نزهة الأبرار في مناقب الشيخ أبي العباس الحرّار»، ومؤلفات أخرى في التخصص نفسه مثل: «نفائس الأنفاس في الصحبة واللباس»، و«الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر»⁴.

أمّا بقية الشخصيات المنسوبة إلى هذه العائلة، فقد اكتفت المصادر بالتأكيد على ما عرفوا به من زهد ومجاورة في المساجد وانحصر نشاط أغلبهم في العبادة والورع والدعوة⁵. ويبقى القاسم المشترك بين كل هذه الشخصيات،

¹ بدأ بالحلاج وصولاً إلى العفيف التلمساني وهم أعلام التصوف الفلسفي الذين خرجوا عن الحدود المعروفة حسب جمهور التصوف المعتدل و لم يلاق فكرهم قبولا لدى الفقهاء. فنقدهم عز الدين بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وسامهم قطب الدين ابن القسطلاني بالليسية لأنهم كانوا يقولون ليس إلا الله. أنظر، الإدريسي (محمد العدلوني)، أبو الحسن الششتري وفلسفته الصوفية، دار الثقافة، المملكة المغربية 2005.

² ابن عماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود أرناؤوط، دار ابن كثير، الط 1 دمشق 1986. ج 7، ص 694.

³ البختي (جمال علال)، الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري، مطبعة الخليج العربي، تطوان 2003، ص. 65.

⁴ الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ج 1، ص 102؛ ابن عماد، شذرات الذهب، ج 10، ص. 169؛ العبدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405 هـ، ص 106.

⁵ مثلما ورد في شأن كمال الدين محمد بن تاج الدين (ت. سنة 731 هـ / 1330 م) وشهاب الدين أحمد بن إمام الدين (708 - 776 هـ / 1308 - 1374 م) أنظر بالتوالي: العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق ومراقبة محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر آباد، الهند 1972، ج 5، ص 465. العسقلاني، الدرر الكامنة، ج 1، ص 355؛ الحسيني الفاسي، ذيل التقييد في رواية السنن والأسانيد، ج 1، ص 401.

هو اكتساب القدسيّة الدّينية بسلوك منهج التقوى والورع وتحقيق الكرامات. لذلك استطاع القسطلانيون، أن يكتسبوا تقدير كل الفئات الاجتماعية دون استثناء، بل نجد أن بعض أفراد هذه العائلة قد تحوّلوا إلى أولياء وأصبحت قبورهم مزارات مثل ما هو الأمر لأبي العباس أحمد بمكة ونور الدين علي بن محمد القسطلاني بمصر¹.

وتدعونا الأمثلة التي قدمتها كتب التراجم إلى التأكيد أن الأوضاع المادية لهذه العائلة كانت مريحة بفضل انشغالهم بالحديث وتوليهم الخطط الدّينية². بالتالي فإنّ التقشف والزهد كانا على ما يبدو منهجا حياتيا لا غير ولم يكن يعني قلة الموارد، بل أصبحت المكانة الاجتماعية للقسطلانيين تعتمد أكثر فأكثر على التصوف والزهد إلى جانب التخصص في الرواية والحديث حتى بداية القرن العاشر الهجري تقريبا.

ومن ناحية الارتباط بالمليادين العلمية الأخرى فنحن نجد ضمن هذه العائلة من كان أديبا شاعرا مثل أحمد بن عمر بن الزين المتوفى سنة 898هـ/ 1492 م³، أو طبيا مثل محمد نجم الدين الذي توفي قبل 890هـ/ 1485 م⁴. ويبقى الميدان الأهم الذي توجه له آل القسطلاني بعد الحديث والتصوف، هو الفقه على المذهب المالكي⁵. لكن ما نلاحظه من خلال الإحصائيات التي قمنا بها، هو تزايد لعدد المغادرين للمذهب المالكي جيلا بعد جيل، فعدد العلماء غير المالكيين من أفراد هذه العائلة كان 2 من أصل 10 بين أواخر القرن السادس ومنتصف القرن الثامن الهجري، ثم أصبح 10 من أصل 15 بين منتصف القرن الثامن وبداية القرن العاشر الهجري. لذلك فإنّ الأفراد الذي برزوا في مختلف المذاهب السنية عاشوا في فترة متقدمة زمنيا كما هو الحال بالنسبة إلى أبي المكارم بن عبد الله بن أحمد الحبلي المتوفى سنة

¹ فقد أطنب صاحب التحفة الشرفية في ذكر صفات أبا العباس أحمد بن علي وكراماته وكيف كان مجاب الدعاء خاصة في ما تعلق بالسقاية واستنزال الأمطار. وهو ما تجسده أيضا الرواية التي تخص نور الدين علي بن محمد القسطلاني حين انتهت زيادة مياه التبل "إلى خمس عشرة ذراعا وسبع عشرة إصبعا" بركة دعاء هذا الشيخ. أنظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر د. ت، ج 9، 262.

² إن المتتبع لمنازل بعض أفراد عائلة القسطلاني يلحظ أن جلهم سكن قرب المسجد أو المدرسة التي يدرس بها، وفي أحياء ودروب مميزة، مما يدل على أنهم كانوا يعيشون أوضاع مادية مريحة. فقد ذكر الذهبي عرضا نزول أبو القاسم عبد الرحمن بن مكّي الطرابلسي ضيفا على أبي العباس القسطلاني (ت. 636 هـ) في داره الموجودة بالفسطاط، في حين قطن شهاب الدين أبو العباس أحمد قرب المدرسة العينية بالقاهرة ودفن بها سنة 923 هـ. أنظر بالتوالي، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 48، ص 98؛ ابن عماد، شذرات الذهب، ج 10، ص 169.

³ السخاوي، الضوء اللامع، دار الجيل بيروت، 1992، ج 11، ص 250.

⁴ نفس المصدر، ج 9، ص 39.

⁵ فبرز في الفقه المالكي العديد من الشخصيات، خاصة تلك التي تنتمي إلى الفرع الثاني للقسطلانيين من أبناء الضياء أبي البركات عمر، فنلقب خليل بن عبد الرحمن بن محمد (ت. 760هـ/ 1358 م) بإمام المالكية بالمسجد الحرام، وولي قضاء المالكية بحلبابنهضياء الدين أبو الفضل محمد بن خليل (ت. سنة 787هـ/ 1385 م) الحسن الفاسي، ذيل التقييد في رواية السنن والأسانيد، ج 1، ص 524؛ وابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره لأول مرة برجستراسر، مكتبة ابن تيمية، ج 1، ص 276. الحسيني، السلوك لمعرفة الدول والملوك، ج 5، ص 203.

833هـ/ 1429 م، أو العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الملك (ت. 923 هـ/ 1517 م) الذي تميّز في الفقه على المذهب الشافعي¹.

وقد أكد Louis Pouzet من خلال مثال مدينة دمشق أن هذه المغادرة للمذهب المالكي تتم عادة في الجيل الثاني، ولاحظ أن المغاربة من الناحية الدينية يندمجون بأكثر سهولة في الممارسات الغالبة للمحليين، وينطبق ذلك على معظم العائلات المغربية المهاجرة². وهو أمر طبيعي إذا ما حاولنا تفسيره بالعوامل الاجتماعية، فهي تعكس دون شك وجود اندماج في الوضع السائد في المجتمعات المشرقية مع الرغبة في بلوغ أكبر المراكز العلمية والإدارية. وربما تعود أيضا إلى قناعة شخصية ورغبة طوعية لا يراد منها مكاسب مادية، مثلما حدث بإفريقية خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ 10 م، عند تحوّل الكثير من الحنفية إلى المذهب المالكي، أو التحوّل الذي كان قد حدث بالأندلس من المذهب الأوزاعي إلى مذهب الإمام مالك خلال العقدين الأخيرين من القرن الثاني الهجري/ 8 م وبعدها بقليل³.

4 المحدّدات المادية لمكانة العائلة في المشرق حسب ما توفره كتب التراجم والطبقات:

إذا كان إشباع هذه العائلة اجتماعيا قد استمدد بالأساس من مكانتها الدينية وكفاءتها العلمية، فلا يمكن التغاضي بأي شكل من الأشكال عن الخاصية المادية والاقتصادية للتراتبية الاجتماعية وما ينتج عنها تأويلات وتمثّلات ودلالات. ويمكننا الجدول التالي من الوقوف على نوعية المناصب والأشغال التي تولّاها أفراد هذه العائلة اعتمادا على ما تمدنا به كتب التراجم والطبقات.

¹ السخاوي، الضوء اللامع، ج 8، ص 78؛ الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997. ج 1، ص 128.

² Pouzet (L.), *Damas au VII^e/ XIII^e siècle vie et structures religieuses d'une métropole islamique*, Dar El-Machreq Sarl éditeurs, Beyrouth 1988. pp. 96 – 99. Voir aussi : Pouzet (L.), « Maghrébins à Damas au XII^e / XIII^e siècle », B. E. O. T. XXVII, année 1975, volume 13. PP. 167 – 199.

³ أنظر نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5 هـ/ 11 م، تبر الزمان، تونس 2004.

الوثيقة رقم 3: الوظائف والمهن المتعلقة بأفراد عائلة القسطلاني

المصدر	الملك ان	المهنة	الولادة والوفاة	الاسم	
الذهبي، ت. 46/ 280	مصر	- مدرس بالمدرسة المالكية بمصر - مفتي	559 - 636	أبو العباس أحمد	1
الذهبي، ت. 49/ 156	مكة	إمام حطيم المالكية بمكة	598 - 663	محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن الحسن بن عبد الله بن أحمد أبو عبد الله القسطلاني	2
الذهبي، ت. 49/ 200	القاهرة	- مدرس بالمدرسة المالكية المجاورة للجامع العتيق - مشيخة دار الحديث بالقاهرة بعد الرشيد القطار	588 - 665	تاج الدين أبو الحسن علي بن أحمد	3

		- ولي النظر في ديوان الأحباس - الإفتاء			
4	شرف الدين عبد المولى بن تاج الدين علي بن القسطلاني.	685	مشيخة دار الحديث بعد أبيه التاج	القه رة	الذهبي، ت. 51 225/
5	قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد القسطلاني	614 - 686	- درّس بالحرم بمحاضرة والده. - أفتى في سنة ثلاث وثلاثين وستمئة فما بعدها كثيرا - عين لقضاء مكة في سنة خمس وستين	مكة القه رة	الصفدي، الوافي 94/2 الذهبي، العبر 362/3

		- ولي على مشيخة دار الحديث بالقاهرة			
6	أبو معالي أحمد بن تاج الدين علي بن القسطلاني	القرن السابع	خطيب مصر	مصر	الذهبي، ت. 286/46
7	تقي الدين محمد بن مجد الدين الحسن بن الشيخ التاج علي بن أحمد القسطلاني	695 عاش 52 سنة	خطيب جامع عمرو بن العاص	مصر	الحسيني، السلوك، 451/2
8	أمين الدين محمد بن الشيخ قطب الدين محمد بن أحمد القسطلاني	635 - 704	- حدث بالمصورية بمكة - قضاء المالكية بمكة	مكة	الحسني، ذيل 214/1
9	شرف الدين أبو الهدى أحمد بن قطب الدين محمد بن أحمد بن القسطلاني	648 - 714	ترسل عن أمير مكة إلى سلطان مصر	مكة	العسقلاني، الدرر. 289/1
10	نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الحسن بن علي القسطلاني	724	خطيب جامع عمرو بن العاص	مصر	ابن تغري بردي، النجوم، 262/9

1 1	جمال الدين محمد بن تقي الدين محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن علي ابن محمد القسطلاني	-673 725	- إمام جامع مصر وخطيب القلعة - يخطب بجامع القلعة ويصلي بالسلطان الجمعة - مشيخة سعيد السعداء	مصر	الحسيني، السلوك، -451/2 365/3
1 2	إمام الدين محمد بن زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ابن علي بن محمد بن الحسن القيسالقسطلاني.	671 - 754	يسافر الى التجارة الى اليمن وكان ذا مال وافر	مكة	الحسني، ذيل. 1 260/
1 3	خليل بن عبد الرحمن بن الضياء محمد بن عمر بن الحسن بن عبد الله المكي التوزري القسطلاني الشيخ ضياء الدين أبو الفضل	688 - 760	- شيخ الحديث بمكة - إمام المالكية بالمسجد الحرام	مكة	السخاوي، التحفة، 1 321/

1 4	أحمد بن إمام الدين محمد بن زينا الدين محمد بن أمين الدين محمد بن قطبالدين محمد بن قطبالدين محمد بن قطبالدين	708 - 776	كان خيرا متمولا	مكة	العسقلاني، أنباء الغمر، 81/1
1 5	أحمد بن الحسن بن الزين محمد بن محمد بن قطبالدين محمد بن قطبالدين محمد بن قطبالدين	720 - 797	تكسيبت بالوثائق	مكة	العسقلاني، أنباء الغمر 496/1
1 6	محمد بن أحمد بن حسن بن الزين محمد بن الأمين محمد بن القطب محمد بن أحمد ابن علي الجمال أبو عبد الله القيسي القسطلاني	801 عن أربعين سنة	كتب بخطه كتبا مع كتابه الوثائق	مكة	السخاوي، الضوء، 305/ 6
1 7	الشهاب أبو العباس أحمد بن أبي الخير محمد بن الزين محمد القسطلاني	803	- يكتب الوثائق ويسجل على الحكام - تأديبه الأبناء بالمسجد الحرام تحت منارة باب علي	مكة	السخاوي، الضوء، 109/2
1 8	جمال الدين عبد الله بن الخطيب شهاب الدين أحمد القسطلاني	807	- خطيب جامع عمرو بمصر	مصر	الحسيني، السلوك، 94/ 6

1 9	حسن بن أبي عبد الله محمد بن حسين بن الزين محمد بن القطب محمد بن أحمد بن علي القسطلاني	762 - 809	- ولي مباشرة في الحرم المكي وفي الأوقاف الحكمية بالقاهرة - نظر أوقاف الحرمين بالإسكندرية	مكة	السخاوي، الضوء، 3 / 124
2 0	عبد الله بن أحمد بن حسن بن الزين محمد بن الأمين محمد بن القطب محمد بن أبي العباس أحمد بن علي القسطلاني	770 - 827	- تعاني الشهادة والوثائق والسجلات - ناب في القضاء برسم الدولة المظفرية أحمد بن المؤيد.	مكة	السخاوي، الضوء، 5 / 5
2 1	أحمد بن عبد الله بن أحمد بن حسن بن الزين محمد بن الأمين محمد بن القطب القسطلاني ويعرف بالحرزي	796 - حيا	وتكسب بالشهادة	مكة	السخاوي، الضوء، 1 / 355

		وسجل على الحُكَّام	سنة 842		
		- دخل الشَّام وناب في القضاء بها في سنة أربع وعشرين وثمان مائة - ناب بالقاهرة في الصالحية النجمية وغيرها عن البساطي في سنة ثلاثين - أذن له السُّلطان في القضاء بمكة قبل ذلك في آخر سنة ست وعشرين بعناية	801 - 864	الكمال أبو البركات محمد بن محمد بن أحمد بن حسن بن الزين محمد بن الأمين محمد بن القطب المُسطَلبيّ	2 2
السخاوي، الضوء، 4/ 9	الش ام القاء رة مكة				

		السراج الحسابي			
2 3	الكمال أبو البركات محمد بن أحمد بن أبي الخير محمد بن حسين الزين محمد بن الأمين محمد ابن القطب القسطلاني	801 - 865	مكة	السخاوي، الضوء، 7 / 61	- صار عين أهل البلدة في المكاتب مع اشتهاره بالعدالة - ناب في العقود عن أبي اليمن النويري ثم ولي القضاء عنه
2 4	أبو الحسن علي الأصغر بن محمد بن أحمد بن حسن النور	798 - 866	مكة	السخاوي، الضوء، 5 / 281	- نشأ فقيرا فسافر في التجارة فأثرى وكثر ماله - ولي التكلم في الخشيشة الجمالية بمكة في أثناء سنة

		أربع وخمسين.			
2 5	أحمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن محمد بن حسين بن التاج علي القسطلاني	830 - 894	وتكسيبالق بان	مكة	السخاوي، الضوء، 1/ 256
2 6	فخر الدين أبو بكر بن أبي الفضل بن أبي البركات القسطلاني بن كمال الدين بن كمال الدين محمد بن أحمد بن أبي الحثير بن حسين بن الزين	895	يتكسب بالشهادة بباب السلام وبالنساخ وهو فقير قانع	مكة	السخاوي، الضوء، 11/ 66
2 7	أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن الزين أحمد بن الجمال محمد بن الصفي محمد بن المجد حسين بن التاج علي القسطلاني	851 - 923	جلس للوخط بالجامع العمري	مصر	ابن عماد، شذرات، 169/10

لا بد من التأكيد في البداية أن التمكن من المعارف الدينية قد فتح الباب أمام العديد من الوظائف الشرعية والقضائية التي ضمنت بدورها أن توفّر للقسطانيين مكانة ووجاهة في المجتمع. وقد تمثّلت الخطط الدينية من خلال هذا الجدول في الإمامة بفرعها إمامة الصلاة والخطبة. وقد مكّنا التجريد من الحصول على 6 شخصيات تولوا هذه المناصب في كل من مصر ومكة وفي عدد من المساجد المهمة كجامع عمرو بن العاص والمسجد الحرام. ويعتبر الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن (رقم 11) من أهم الشخصيات التي جمعت في الوقت نفسه بين الإمامة بالجامع الكبير بمصر والخطابة بجامع القلعة لسنوات طويلة بلغت حسب مترجميه الخمسين سنة¹. في حين اشتغل الكثير منهم بالتدريس وقد تباينت مراتبهم في ذلك، حيث قدّمت لنا كتب الطبقات بعض الألقاب التي تبين شيئا من هذا التنوع مثل الشيخ والواعظ والمدرس والمؤدّب.

أما بالنسبة إلى الوظائف المتعلقة بالدولة، شرعية كانت أو إدارية، فإن أهم ما توصل إليه القسطانيون هو منصب القضاء على المذهبين المالكي والشافعي (رقم 5 و 8 و 22)، إلى جانب مناصب أخرى مثل النيابة والكتابة والعدالة والإشهاد. وهي وظائف لم تكن قليلة الأهمية، حيث تعتبر العدالة مقياسا لعلو شأن صاحبها وسببا في تدرجه في السلم الوظيفي، مثلما هو الأمر للكمال أبو البركات محمد (رقم 29) الذي بدأ أمره كاتباً ثم عدلا، ليتولى فيما بعد القضاء عوضا عن أبي اليمن النويري². أما فيما يخص الوظائف الإدارية فقد تراوحت عموما بين النظر في الدواوين والأوقاف والترسّل لدى السلاطين (الحالة رقم 9).

كما ارتبطت المكانة الاجتماعية لبعض القسطانيين بالاشتغال بأنشطة اقتصادية متنوعة. فقد عمل أمين الدين محمد (رقم 12) على تنمية ثروة كانت مصادرها تجارية بالأساس، فذكر مترجموه بأنه كان "خيّرا متمولا"³. في حين بدأ أبو الحسن علي (رقم 24) حياته فقيرا فكانت التجارة سببا في اثرائه. ونجد أن هناك من اختص بمهنة حرفية (رقم 25)، واعتمدت البقية على نفوذها الديني ولم تتولّى أي نوع من الوظائف. ونفهم من خلال الجدول أعلاه أن هذا الزخم كان يعكس الوضعية الاجتماعية للعائلة خلال مختلف فترات تطوّرها، خاصة عندما نعلم أن هذه الخطط لم تكن وراثيّة في أصلها وإنما أصبحت من تقاليد بعض العائلات ومن دعائم جاهها.

¹ ابن التبري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، ص 265.

² السخاوي، الضوء اللامع، ج 7، ص 61.

³ العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر 1969. ج 1، ص 81.

وهو ما يطرح في أذهاننا بعض التساؤلات حول الكيفية التي حافظت بها هذه العائلة على مكانتها الاجتماعية وتواصل حصولها على مناصب مرموقة ودوام هيبتها الدينية والاجتماعية على فترة تجاوزت الأربعة قرون؟

5 استراتيجيات المحافظة على المكانة الاجتماعية:

قد ثبت من خلال التحليلات السابقة أن الدور الاجتماعي والتمرتب المرموق لبيت القسطلاني استمد أساسا من معارفها الدينية والشرعية ومن عراقه استقرارها في المشرق. لكن للاحتفاظ بهذه المكانة كانت العائلة مدعوة إلى المواكبة والتجديد لتدافع عن مصالحها ونفوذها واستمراريتها، وتورث الرأسمال الثقافي والاجتماعي عبر أجيال متتالية¹. وهذه الاستراتيجيات اعتمدت أساسا على تكوين علاقات متينة مع مجموعات من المحيط الاجتماعي نفسه، وكذلك من خلال أنماط التضامن والولاءات مع مختلف الشرائح المكونة للمجتمعات المشرقية: ويمكن تلخيص أبرز ملامح هذه الاستراتيجيات في النقاط التالية:

أولا: الحرص على تعليم الأبناء منذ مرحلة الطفولة المبكرة لتكوين جيل أو أجيال جديدة تستطيع الحفاظ على ما تحصّلت عليه العائلة من رأسمال ثقافي². ولم يكن السعي إلى الحصول على الإجازات من كبار شيوخ العصر، إلا نوعا من أنواع هذه الأولويات التي أبداها العديد من أفراد عائلة القسطلاني.

فتخبرنا المصادر مثلا أن القطب محمد كان يطالب أثناء رحلته لقاء أصحاب الأسانيد العالية في الحديث سنة 649هـ/ 1251 م، بالإجازة لأولاده السبعة في العديد من الأقطار الإسلامية التي زارها³. كما حرص البعض الآخر على

¹ يؤكد العديد من الباحثين أن الأسس التي تبنى عليها العلاقات الاجتماعية تتمثل في القدرة على تأكيد الموقع المتميز تجاه الآخر، وإظهار الأحقية في التصدر الاجتماعي. أنظر حول هذا الموضوع:

Bourdieu (P.), *La distinction : Critique sociale du jugement*, Cérès édition, Tunis 1959. p. 188 – 189 ; Touati (H), *Entre Dieu et les hommes. Lettrés, saints et sorciers au Maghreb (17^e siècle)*, paris 1994 ; voir particulièrement le premier chapitre. Voir aussi Van Renterghem (V.), « *Autorité religieuse et autorité sociale dans le groupe hanbalite bagdadien d'après le «Journal» d'Ibn al-Bannâ' (V^e/XI^e siècle)* », *Les autorités religieuses entre charisme et hiérarchie: approches comparatives*, sous la direction de Denis Aigle, BREPOLs, Belgium 2011. p. 63 – 85.

² Voir Berkey (J.), *The transmission of knowledge in medieval Cairo. A social History of Islamic Education*, Princeton, 1992.

³ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج. 2 ص. 94

الحصول على الاجازة لأطفال لم يتجاوز سنّهم العامين، كما هو الحال بالنسبة إلى أبي المكارم محمد بن أحمد بن أبي الخير (ت. سنة 837 هـ / 1433م) الذي أجاز عدد كبير من العلماء وهو لا يزال في المهد¹.

وبغض النظر - بطبيعة الحال - عن كون الإجازة كانت تسند ضمن الشروط العلمية المتعارف عليها أم لا، فهي تدخل ولا شك في إطار تحالفات معينة تريد العائلة أن ترتبط بها، وأيضاً في إطار استقطاب النفوذ بين العلماء وخاصة بين البيوتات العلمية، وهي استراتيجية هامة غايتها الحفاظ على الإرث المعرفي لعائلة وتوريثه للأجيال المتعاقبة².

ثانياً: الرّهان على مصاهرة عائلات تنتمي إلى المحيط الاجتماعي بنفسه. حيث ترشدنا المصادر إلى أن هذه العائلة تميّزت بانفتاحها الزواجي على مختلف البيوتات الحضريّة والعلميّة³. فقد تحصلنا من خلال التجريد على 5 حالات فقط من الزواج الداخلي من جملة 22 حالة مكّنتنا كتب الطبقات من استخراجها. ونلاحظ أن البيوتات التي ارتبطت بها القسطلانيون كانت مشهورة في ميدان العلوم مثل عائلة الطبري والمرشدي والفاكهي وعائلة ابن فهد، ويظهر من خلال الأمثلة التي وردت في الجدول أنها راهنت على مصاهرة العائلات الشريفة المكيّة، (مثال الحالة رقم 8)⁴. وهي استراتيجية هامة، غايتها زيادة تمّتين مكانتها واكتساب الشرف الاجتماعي بالجمع بين النفوذ الديني والهيبة الاجتماعية.

لذلك ما يمكن استنتاجه من خلال هذه الأمثلة أن الزواج كان يعتبر الركيزة الأساسية للتصدر الاجتماعي، ونحسب أن ابن خلدون كان أميناً حين اعتبر أن نظام المصاهرة إلى جانب القرابة محددان رئيسيان في ثقافة وبنية المجتمع. فإلى جانب ما تمثله أواصر القرابة من دور في رسم معالم المكانة الاجتماعية بالّلحمة والعصبيّة، فإن المصاهرة أيضاً تلعب دوراً متيناً في تعزيز المنزلة لدى المجموعات المؤثرة، خاصة بالنسبة إلى الذين يريدون أن يقوى جانبهم بالنسب مثلما هو الأمر لعائلة القسطلاني الوافدة على المشرق⁵. بالتالي فالمنطق الذي يحكم نظام المصاهرة هو الحرص على توريث ما

¹ السخاوي، الضوء اللامع، ج. 9 ص. 39

²Touati(H.), « les Héritiers : Anthropologie des maisons de sciences maghrébines au XI^e / XVII^e et XII^e / XVIII^e siècle », *Modes de transmission de la culture religieuse en islam*, travaux publiés sous la direction Hassan Elboudrari et édité avec le concours de l'université de Princeton, le Caire 1993, pp 65 – 92.

³ أنظر الجدول رقم 4 : مبادلات الزواج لدى آل القسطلاني.

⁴ غني عن القول أن هذه البيوتات الشريفة كانت تحتكر السلطة الحقيقية بمكة والحجاز منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ 11 م تقريبا، بعد أن حظيت بالحكم الذاتي بمقابل الاعتراف بالسلطات المركزية المتعاقبة بالمشرق.

⁵ ابن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 2000. ص 160 – 161.

يسمى بـ"الرأسمال الثقافي والاجتماعي"، وتكوين شبكة علاقات تمكن هذه الأسر من الحفاظ على وجودها واستمراريتها¹، فيقوى بالتالي جانبها بـ«الوصلة والالتحام» حسب تعبير ابن خلدون².

لكن الذي شد انتباهنا أن الأمثلة التي مدّتنا بها كتب الطبقات تكاد تكون محصورة لدى الفرع المكي من أبناء القطب أبي بكر محمد، والمثال المصري الوحيد تمثل في مجد الدين أبي علي حسن بن علي القسطلاني (مثال رقم 1) الذي صاهر مجد الدين الإخميمي خطيب مصر.

وقد نجد تفسيراً لذلك في عاملين رئيسين: الأول يتعلق بالمصادر، ففي حين اهتم ابن فهد بالفرع المكي واعتبر المصدر الأساسي في تأريخه للعائلة من خلال كتابه "غاية الأمانى في تراجم أولاد القسطلاني"³، فنقل عنه ابن حجر في درره والسخاوي في الضوء، فإن الفرع المصري لم يحض بنفس الاهتمام على ما يبدو مما يفسر عدم التوازن في توفير المعلومات. أما النقطة الثانية، فتتمثل في تركيبة المجتمع المكي، المتكوّن من عدد من البيوتات العلمية الوافدة على مكة منذ الأيوبيين⁴، مما سهل على أبناء القطب تثبيت مكانتهم ضمنها، وهو أمر لم يكن متوفراً على ما يبدو لأبناء التاج المستقرّين بمصر.

¹Bourdieu (P.), *La distinction : Critique sociale du jugement*, p. 188 – 189 ; Chamberlain (M.), *Knowledge and social practice in medieval Damascus, 1190 – 1350*, Cambridge University Press, – 111.1101995. p.

² ابن خلدون، المقدمة، ص 161.

³ أنظر ترجمة عمر بن محمد بن محمد بن أبي الخير محمد بن محمد بن عبد الله بن فهد، لدى السخاوي، الضوء اللامع، ج 6، ص 129.

⁴ مثل عائلة الطبري وعائلة العسقلاني التي ظهرت منذ فترة حكم الأيوبيين، ثم عائلة ابن الظهيرة والفاسي والنويري وابن فهد والذروي والمرشدي في الفترة المملوكية. وهي كلها عائلات وافدة أثرت المشهد الثقافي والاجتماعي لمكة خلال كامل الفترة الوسيطة.

الوثيقة رقم 4: مبادلات الزواج عند آل القسطلاني

الاسم	الوفاة	الزوج أو الزوجة	المصاهرة	المكان	المصدر
1	685	ابنة الخطيب مجد الدين الإخيمي	-	مصر	العسقلاني، الدرر، 5 463/
2	721	تزوجت بالجمال محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الزين أبو الطاهر بن الجمال بن الحافظ المحب الطبري ثم المكي الشافعي	الطبري	مكة	السخاوي، التحفة، 1/ 133
3	789	عائشة ابنة محمد بن علي العجمي	-	مكة	السخاوي، الضوء، 7 / 79
4	797	أم الحسين سِت الكل ابنة أحمد بن إمام الدين محمد بن الزين محمد بن الأمين محمد بن	القسطلاني	مكة	السخاوي، الضوء، 12 / 58

			القطب مُحَمَّد بن أحمد بن عليّ القسطلانية			
5	أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حسن بن الزين محمد بن أمين الدين محمد بن القطب محمد القسطلاني	801	خديجة ابنة إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر المرشديأخت الجمال المرشدي	المرشدي	مكة	السخاوي، الضوء، 12 / 100
6	العفيف عبد الله بن أحمد بن حسن بن الزين القسطلاني	827	- خديجة ابنة إبراهيم بن أحمد المرشدي - خديجة ابنة أبي عبد الله مُحَمَّد بن حسن بن الزين مُحَمَّد بن الامين مُحَمَّد ابن القطب مُحَمَّد بن أحمد بن عليّ أم أحمد القُسطلانيّ المكية.	- المرشدي - القسطلاني	مكة	السخاوي، الضوء، 12 / 140/
7	عائشة ابنة أحمد بن حسن ابن الزين القُسطلانيّ	827	أبو السعادات مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر الطبري	الطبري	مكة	السخاوي، الضوء، 9 / 191

8	أم الحُسَيْن الصُّغْرَى ابنة عبد الله بن أحمد بن حسن بن الزين مُحَمَّد بنالامين مُحَمَّد بن قطب القُسْطَلَانِي	829	- الشريف عميد بن عاطف بن أبي دعيج بن أبي نعي الحُسَنَة - الشريف مقبل بن مُحَمَّد بن عاطف	شرفاء مكة	مكة	السخاوي، الضوء، 12/ 140
9	أم الأمان فاطمة بنت الجمال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حسن بن الزين محمد	832	علي بن مُحَمَّد بن عمر بن عبد الله بن أبي بكر الفاكهي المَكِّي	الفاكهي	مكة	السخاوي، الضوء، 12/ 101
10	حَدِيْجَة ابنة أبي عبد الله مُحَمَّد بن حسن بن الزين مُحَمَّد بن الامين مُحَمَّد ابن القطب مُحَمَّد بن أحمد بن علي القُسْطَلَانِي	846	- تَزَوَّجَتْ ابن عَمَهَا مُحَمَّد بن احمد بن حسن فَوَلَدَتْ لَهُ ثُمَّ طَلَّقَهَا - فَتَزَوَّجَتْ قَرِيْبَهَا ايضا احمد بن ابي الحَيَّر مُحَمَّد بن حُسَيْن ابن الزين فَوَلَدَتْ لَهُ - تزوجت بأخي زَوْجَهَا الاول العَفِيف عبد الله بن احمد	القسطلاني	مكة	السخاوي، الضوء، 12/ 30

11	الجمال أبو الخير محمد بن العفيف عبد الله بن أحمد بن الحسن بن الزين محمد القسطلاني.	848	حَدِيْجَةُ ابْنَةُ مُحَمَّد بن عِيْسَى الحَلْبِي	-	مكة	السخاوي، الضوء، 12 / 142
12	أم الامان فاطمة ابنة أبي البركات مُحَمَّد بن اَحْمَد بن ابي الحُسَيْن مُحَمَّد بن حسن بن الزين أحمد بن الأمين مُحَمَّد بن القطب مُحَمَّد الْقُسْطَلَانِي	بعد 854	مُحَمَّد بن اَحْمَد الفاكهي	الفاكهي	مكة	السخاوي، الضوء، 12 101/
13	نور الدين عَلِي بن مُحَمَّد بن أحمد بن محمد القسطلاني	866	هَدِيَّة ابْنَةُ الْعَفِيف عبد الله بن أَحْمَد بن حسن أم الهدى ابنة ابن الزين الْقُسْطَلَانِي	القسطلاني	مكة	السخاوي، الضوء، 12/ 132
14	رَيْنَب ابْنَةُ عَلِي بن مُحَمَّد بن اَحْمَد بن حسن بن الزين مُحَمَّد بن الأمين مُحَمَّد بن القطب الْقُسْطَلَانِي	862	- الجمال مُحَمَّد بن مَسْعُود الزواوي ثُمَّ بعد طلاقه -عبد القادر بن يحيى بن فهد	- الزواوي - ابن فهد	مكة	السخاوي، الضوء، 12 44/
15	الْكَمَال أَبُو البركات مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أحمد بن حسن بن الزين القسطلاني.	864	أم كَمَال ابْنَةُ الْعَفِيف عبد الله بن أَحْمَد بن حسن بن الزين مُحَمَّد بن الأمين مُحَمَّد بن القطب الْقُسْطَلَانِي	القسطلاني	مكة	السخاوي، الضوء، 12 160/

16	الكمال محمد بن أحمد بن أبو الخير محمد بن الحسين بن الزين محمد القسطلاني	865	- ست الكل سعيدة ابنة علي بن محمد بن عمر الفاكهي وهي ابنت أخت الجمال المرشدي - الفاكهي - حبيبة ابنة علي بن محمد بن عمرالفاكهي	- المرشدي - الفاكهي	مكة	السخاوي، الضوء، 9 / 38 - 39
17	فاطمة بنت النور أبو الحسن علي الأصغر بن محمد بن أحمد بن حسن بن الزين القسطلاني.	871	أبو بكر بن عبد الغني المرشدي	المرشدي	مكة	السخاوي، الضوء، 95/12 - 96
18	الجمال محمد بن أحمد بن أحمد بن الضياء محمد بن التقي عمر بن محمد بن عمر بن الحسن القسطلاني	القرن 9	سعدى المغربية مستولدة الشهاب بن ظهيرة أم ولده أبي عبد الله	ابن ظهيرة	مكة	السخاوي، الضوء، 9 / 3
19	النجم محمد بن أبي البركات محمد بن أبي العباس أحمد بن أبو الخير محمد بن الزين القسطلاني.	889	- ذابل الحبشية عتيقة القاضي علي بن الزين القسطلاني المكي وموطوءته - أم الحسين ابنة أبي الحثير محمد بن عبد الله بن أحمد	القسطلاني	مكة	السخاوي، الضوء، 12 / 33 نفسه، 12 142/

			بن حسن بن الزين مُحمَّد بن الأمين مُحمَّد القطب الْقُسْطَلَانِيّ			
20	فَاطِمَة ابنة أبي الحَثير مُحمَّد بن حُسَيْن بن الزين مُحمَّد بن الامين مُحمَّد بن القطب مُحمَّد بن أحمد بن عليّ الْقُسْطَلَانِيّ	بعد 890	عبد اللطيف بن مُوسى بن عميرة البيناوي	-	مكة	السخاوي، الضوء، 12 / 102
21	سَعَادَة ابنة أبي البَقَاء مُحمَّد بن عبد الله بن أحمد بن حسن بن الزین مُحمَّد ابن الأمين مُحمَّد بن القطب الْقُسْطَلَانِيّ المكية	892	- أَبُو الْقَسم بن مُحمَّد بن عليّ الفاكهي - أَبُو البركات بن مُحمَّد بن عليّ الفاكهي - عبد الْقَادِر بن النويري	الفاكهي	مكة	السخاوي، الضوء، 12 / 65
22	مُحمَّد بن أبي بكر بن عبد الْمَلِك بن الزين أحمد بن الْجَمَال مُحمَّد بن الصفي مُحمَّد بن الْمَجْد حُسَيْن بن التَّاج عليّ الْقُسْطَلَانِيّ	-	حليمة ابنة الشَّيْخ أبي بكر بن أحمد بن حميدة النَّحَاس	-	مكة	السخاوي، الضوء، 103/2

ثالثاً: أنماط التضامن وما تعكسه من درجة اندماج في المجتمعات المشرقية، وقد تأكد ذلك من خلال ما تنسبه المصادر إلى بعض أفراد هذه العائلة نزيلة مكة ومصر من تشييد وترميم المساجد والميضات، وكل ما يتعلق بالأعمال المعمارية التقليدية التي يقوم بها أصحاب السلطة أو أصحاب الثروة والمحسنين. وكنا قد وقفنا على الثروة التي اكتسبها بعض القسطلانيين، بما مكّنهم من لعب أدوار مهمة في تجديد المرافق العامة وتحسينها. فقد وصفت المصادر أحمد بن محمد بن القطب محمد، بأنه "ذا مال وبرّ ومعروف وديانة"، وأحمد بن محمد بن زين الدين بأنه "كان خيراً متمولاً"، في حين تمكّن علي بن محمد لوحده من ترميم رباط السدرة ورباط كلاله بمكة سنة 843 هـ¹.

هذه الأعمال الخيرية لا تقتصر فقط على أصحاب الثروات بل على أفرد كانت مواردهم متواضعة، وهو ما نراه جلياً في مثال القطب محمد الذي ذكر في شأنه صاحب المقفى الكبير أنه كان مكرماً للوارد عليه من الفقراء بالقاهرة، "يعمل لهم سماطاً يأكلون عليه عنده ويبرهم ويعين أكثرهم على الحج، وكان كثير السعي في حوائج الناس"². في حين اشتهر الضياء أبو عبد الله خليل بن عبد الرحمن القسطلاني إمام المالكية في مكة بالبرّ وتقديمه الصدقات ومواساة الفقراء وتحمل الدين العظيم لأجلهم، حتى انتهى دينه حسب ما يذكره صاحب التحفة اللطيفة إلى ما يقارب مائة ألف درهم، أو أنه "كان له من الدين فوق ما يصفه الواصفون"³. نتبين من خلال هذه الروايات مدى أهمية ما يسمّى بأنماط التضامن الاجتماعي خاصة المتصلة بشؤون الحياة المادية من أمور المعيشة وتوفير الضروريات اليومية للعديد من الشرائح، وما يتعلق بها من سعي لاكتساب مشروعية اجتماعية وتعزيز مكانة الفرد داخل المجموعة التي يعيش فيها.

الخاتمة :

ما يمكن استخلاصه من خلال ما تقدم أن عائلة القسطلانيين تمتع بجملته من الصفات الرمزية والمعنوية التي اكتسبتها عبر التاريخ ونحت لها مكانة وجيهة ضمن فئات المجتمع المشرقي. وذلك باعتبارها تنتمي إلى البيوتات العلمية التي تعود جذورها إلى بداية القرن السادس الهجري/ 12 م، حيث انضافت إلى العناصر القادمة من المغرب ومن باقي المدن المشرقية وكونت أسراً وبيوتات اكتسبت عراقاً وشهرة بالتقدم. حتى أن التلاحق والتثاقف والتعايش بين جميع هذه البيوتات داخل مكة ومصر خلق لحمة اجتماعية وانصهاراً ونمطاً من العيش المتميز له تقاليده وعراقته.

¹ العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء العمر، ج 1، ص 81؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج 5، ص 281.

² المقرئ، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991 ج 5، ص 230.

³ السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج 1، ص 321.

من ناحية أخرى أثبتت كتب الطبقات قيمتها، وساعدت على التعرف على إحدى أهم العائلات الأفريقية المهاجرة إلى المشرق وتتبع أثارها واسهاماتها العلمية. فلطالما اهتمت الأبحاث بنماذج من الرحلات العلمية بين المغرب والمشرق لكنها تغاضت بشكل أو بآخر على ذكر هذه العائلات، التي كونت شرفا اجتماعيا وأصبحت من الأسر البيوتات المشهورة التي توارثت العلم والمناصب الشرعية عبر أجيال متتالية، وأسهمت - دون شك - في إثراء المشهد الثقافي والاجتماعي للمشرق الإسلامي. ولعل العمل على التعريف بعائلة القسطلاني قد يفتح الطريق للحديث عن عائلات أخرى مهاجرة مستقرة في العديد من المدن المشرقية لاسيما منها أسرة البوصيري أصيلة المنستير.